كوخ الخيـزران

محمد روحي*

(إلى الروائي يحيى يخلف، لعلّ وعسى ..)

النساء الكلاسيكيات –الجثث الباردة الأنيقة – أربكن «الهمشري» في قاعات فندق المنصور، بمدينة بغداد. لقد دأب، دائماً، على أن يتحاشى التماس مع هذه السلالة المنتصرة، لذا جأرت ناعورة روحه «أخشاهن إلى حدّ الرعب والتقزّز».

«أتراه يبالغ؟ ربما!» صوّتت شرايين «الهمشري» طويلاً، من يدري، فلربما ألفاها فرصة طيّبة لا تُفوّت، ليعزف نايه المبحوح رعوية تليق ببغداد المُكحّلة الحلوة، بغداد الغاضبة العاتبة المغدورة.

باح «الهمشري» أكثر، أو لنقل انفجر تماماً، لدرجة أننا خفنا عليه «أحلفكم بدم الشهيد محمد الدرّة، تأمّلوهن جيداً، الأنوف المرفوعة أكثر من اللازم، الوجوه المُصعّرة، حركاتهن بالمسطرة، كلامهن بالقطارة، دققوا ملياً بالبطيئات المشلولات، فزّاعات المقاثي المكويّات..

أوقف أحدنا منجنيق مثالبه المتدفق وداعبه «بالمناسبة، لماذا لا تكوي ملابسك يا همشري؟!!»، «لا أعرف المشي بملابس مكوّية، أتعثر بها». «أجربت ذلك مرّة؟»، «لا، لكنني أختيل حزوزها الناعظة شفرات تتوثب للذبح». ملنا على بعض وهمسنا «وربّ أبي النواس وبشّار وحمّاد عجرد، لقد ثمل الهمشري». «هل شرب كثيراً؟». «عبّ أكثر من بغل حرون».

«لنصعد به إلى غرفته قبل أن يفضحنا». «أفضحكم؟ يا أولاد المستفرمات بعجم الزبيب». وضحكنا بوقاحة من أعماق قلوبنا لطرافة تعبيره، وورّطنا نهر دجلة (الساهر تحت شرفة الفندق)، إذ جعلناه يخرج عن وقاره قليلاً، ويشاركنا مناكفات مجوننا البريئة. «فلقتنا يا همشري، فالمرأة التي طالما حدثتنا عنها غير موجودة إلاّ بين أوراقك».

«لا تتعجلوا الأمر يا رفاقي الأغرار، المرأة التي أحلم بها ليست من ورق، بل من لحم ودم، وهي موجودة في مكان ما، وحتماً ستأتي.. ستأتي».

«وذوات الأنوف المرفوعة أكثر من اللازم، ألسن من لحم ودم؟». «لا، لا، إنهنّ باردات، مجبصنات. «الهمشري» يحلم بامرأة مُذلة مُهانة، أحلم بامرأة مثل انتفاضتنا المجنونة، لا أكثر ولا أقل» .

وناكفناه من جديد «ستظل تحلم، إذاً، وإلى أبد الآبدين، ولن تأتي».

«ستجيء، ستجيء، يا رفاقي الأحباء».

* * *

كثيراً ما كان يقول لنا: «عندما تحاول نمرة الحيرة، أن تثب عليكم لتفترسكم، احتكموا إلى بئركم الأولى، أو يمّموا وجوهكم إلى كهل ضرّسته الأيام في أقاصي الريف». لقد تناهى إلى سمع «الهمشري» – بطريقة وأخرى، من هنا وهناك – بقايا حكاية مهشمّة عن (كاتبة تعيش ببغداد، كلّهم راودها عن نفسها وأبت).

أنا أدّعي أنني أعرف طقوس الهمشري، وإن كنت لا أفهمها غالباً: هو الآن حتماً أمسك طرف الخيط – فهذا ديدنه دائماً – ليبحث ويكتشف، على حدّ تعبيره، وسيعبر إلى المجهول، ولو أبلغه إلى جهنم الحمراء، من المؤكد الآن، أيضاً، أنه اعتبر تلك الحكاية أشبه ما تكون بجثّة مزّقتها وبعثرتها قذيفة ما، وسيسعى إلى لملمتها. الهمشري عبارة عن خمس حواس متحرّكة مضروبة بخمس أخريات، وأكثر من ذلك هو – كلّه – قرون استشعار، أنف «سيرانو» المشرئب يمشي على قدمين، أو يحتكم – الآن – إلى بئره الأولى؟ أيطلّ على نفسه ويهرب منها إليها؟ أيتبع «نداء قلبه» كما قالت ملحمة «الزير»؟ همس لي بوجهه الترابي:

«آمنت دائماً، أنّ لأية مدينة في الدنيا وجوهاً أخرى أهم وأعمق من هذا الوجه الزائف الذي نراه». ماحكتهُ بعبارة عتيقة، كانت أثيرة لنفسه أيام السجن «شكْ في كل شيء». أما قال ذلك الأخ «ماركس؟». انفجرت ضحكته الرعوية غير المحتشمة، فلامست سقف القاعة الشاهقة الفسيحة، ما جعل أعناق (الوفود العربية) من الشعراء والكتّاب المبعثرين على الأرائك الوثيرة، الذين قدموا إلى مهرجان (المربد) تتطلع وتتلفت في استهجان. قلت له: «سيمفونيتك كما ترى أزعجت الجميع». ردّ عليّ بخشونة: «لينفلقوا». أردف بارتياح: «لا، لم تزعج الجميع، أجزم أنها راقت لأهل بغداد». وبنزق قال: «دفء الفندق يخنقني». وخرج في الليل الممطر لتحضنه «شوارع بغداد الخلفية التي تشي بكل شيء» كما أخبرنا فيما بعد، مَنْ يدري – وربما – ليبحث عن الحكاية ذاتها.. المثخنة بالأسى».

عاد عند الفجر مخموراً، أيقظنا وهو يغمغم ويصيح «وجدتها .. وجدتها». أشعل نور الجناح كلّه – لأن جميع الحجرات كانت مفتوحة بعضها على بعض – فضحكنا وتذمرنا ولعنّاه «ما الذي وجدته أيها اللعين؟».

«أطفئ النور نريد أن ننام»، «وجدتها .. وجدتها»، «فقط، قل لنا ما الذي وجدته يا أرخميدس؟».

«وجدت أجمل نخلة في العراق .. وجدت المرأة المُذلّة .. وجدت المرأة المُهانة».

«نم أيها المسطول» قال كلاماً كثيراً، فنمنا وتركناه يهذي، إذ ما لبث بعدها إلاّ قليلاً وهمد. فأخبرنا بذلك أحدنا ثاني يوم، لأنه قام للحمام – غفى ورائحة الخمر تفوح من جميع أعطافه.

* * *

ليلتها – عرفنا ذلك فيما بعد كذلك – طار لبيت حارس كرمها، القابع في أحد أحياء بغداد القديمة، لأن الهمشري كان قد اتفق مع الرجل الذي يشبه بيته أن يكون جسراً يعبر منه إليها، ولا يدري ساعتها إنْ كان دقّ الباب بيده أم بقلبه، كل ما يذكره وواثق منه أن كلاباً سوداء بحجم البغال طاردته في الزقاق الموغل في العمق، وأن الرجل الذي لحكاياته روائح مدوّخة قال له: «أما قلت لك؟».

«لكنها وافقت»، «غيّرت رأيها في اللحظة الأخيرة»، «أهي في الداخل؟».

«لا، خرجت»، «طيب، ما الذي دار بينكما؟» «بصراحة، قلت لها: الهمشري يختلف»،

قالت: «كلهم متشابهون، لا أريد أن أرى وجه أحد منهم». أحسّ بمذاق يشبه طعم «بصقة محقق إسرائيلي».

ولحظتها – لأنه اشتهى البكاء – بكى، «على أية حالة، قل لها: لن أغادر بغداد قبل أن أراها».

* * *

كان النهر يفكر (بمهابة وحزن وجلال) على أقلّ من مهله، ولعلّها أشجار سرو وصنوبر، تلك التي كانت متشحة بالسواد المهيب على ضفتيه، فالهمشري لم يتبيّن غير العتمة المُرعشة، ولا يدري لماذا في هذه اللحظات تذكر كهل أقاصي الريف؟ قال النهر بوقار أخجله: «كلاب الزقاق يا همشري لم تكن تجري خلفك هناك، الكلاب المسعورة النابحة هنا».

سأله راجفاً: أين يا سيدي النهر؟. قال النهر: في داخلك. قهقه النهر قائلاً: يمامة النهر قالت لحارس كرمها: «وحدك المختلف يا مسكين».

ركض كثيراً على ضفة النهر الموحلة – المحاذية لشارع أبي النواس – فرّ باتجاه نار بعيدة، اقترب مرعوباً من كوخ خيزران مضاء بنار تكاد تلحس سقفه العسلي، ونادى بصوت يشبه مرآة مشروخة: «يا عم .. يا صاحب الكوخ».

فانبعث من الداخل صوتٌ نسائي يشبه ملمس الفولاذ ولحسة عسل – يردّ عليه: ادخل يا همشري.

الصوت الأنثوي الواثق شقه إلى نصفين، نصف طمأنينة ونصف خوف.

«قلت لك ادخل .. ادخل يا همشري».

دخل كوخ الخيزران عبر بابه الموارب قليلاً، وكان «سعدون جابر» ينوح بأغنية يتقطع لكلماتها نياط القلب: (موحزِنْ .. لكن حزينْ .. مِثِلْ ما تِنْقَطِع .. جَوُه

المُطَرْ.. تحت المُطَرْ .. شتلة ياسَمين .. نبعة ياسَمين».

وقفتْ وصافحته، فقال لنفسه اللاهثة: يا إلهي، إنها أحلى نخلة في العراق.. لراحة يدها طعم التمر، يا رب هذا الكون، أي عيون سود هذه؟ لا هذه قوارب صيد، قطعاً لم تكتحل بحجر إثمد ولا بغيره، هذا كحل رباني، والأهداب سعف نخيل.

وتخيّل أنه لو تطاول برؤوس أصابع رجليه لما بلغ ذؤابات شعرها الغجري، المندفع نحو صدرها كشلال أسود لامع. كانت ترتدي بلوزة بسيطة – تغيّر لونها الأسود حتى باتت تقترب من الرمادي – وتنورة طويلة تصل إلى كاحليها، قديمة شبه سوداء هي الأخرى، وحافية كانت، أيضاً.

قرأ المكان بعينين لاهثتين: بساطاً يغطي مصطبة الكوخ المتواضع، فرشة ووسادة يتمتين، موقداً يعمّره هرم من الجذى السمينة، حرامين ثقيلين، وأكواماً من الكتب والمجلات تتكئ على نفسها هنا وهناك.

أغلقت المسجل، وموسيقى الأغنية، وكلماتها تحفر عميقاً في القلب، تخرّ بالروح. تربّعت على البساط، وألحت عليه بأريحية، فقعد على الفرشة قبالتها، بينهما كانون النار، قالت: حكى لي حارس الكرم عن رغبتك، ما الذي تريد أن تكتبه عني تحديداً؟ جمجم: كل شيء .. كل شيء. ضحكت من أنفها: كل شيء؟!!. وبغضب وجبين معقود قالت: لا أريدك أن تكتب شيئاً، فقط استمع إليّ. «سأنصت وأستمع».

من أنفها – ثانية – ضحكت: «لا، لا، ما سأقوله لا يحمل صفة القداسة .. بل لن تشمّ منه غير روائح كريهة».

آثر الصمت وحثها بعينيه موافقاً، فانهمرت: أنا امرأة فلسطينية، أنتمي إلى طين المخيم وثوب أمي المطرّز، وأخاديد وجه أبي المرمي في أحد مخيمات الأردن، عشت طفولتي في فلسطين، وجئنا إلى هذا البلد (الجَمل)، تزوجت من صحافي عراقي، ولي منه ثلاثة أطفال ينهشهم الجوع والمرض، حاربت حتى أخذت الصغار وانفصلت عنه، أرى سؤالاً يتدلى من عينيك: ولكن لماذا؟ باختصار «كيف أقول ذلك؟»، في إحدى قصص «كافكا» واسمها «فنّان جوع» كتب يوماً: «حاول، فقط، أن تشرح فن الجوع لأي شخص، فمن ليس لديه إحساس به، لا يمكن أن يكون مهيأ لكي يفهمه»، في البداية ألمح لي من بعيد، بعدها طلب مني صراحة بيع جسدي، ومن ثم باع معظم كتبنا.

وأخيراً أراد أن يتذاكى، ونكتب لصحف الخارج بأسماء مستعارة، وبهذا تنفتح لنا نافذة خير وفرج، على حدّ تعبيره، وفعلاً هو بدأ يكتب وينحدر، ولمّا أدركت أنه سادر في ضلاله، أعلنت له (هذه نافذة نكران) وسلّمته إلى جمال البلد، هل ارتحت الآن يا همشري؟ ماذا تريد أن تعرف، أيضاً؟ أما زلت تصرّ على معرفة كل شيء .. كل شيء؟

لم يعد الهمشري يحتمل، انفجر بالبكاء، تخيّلها عشتار تطل من زقورتها وتصيح، ولا من «جلجامش» ولا «أنكيدو» ثمّة في المدى. وأكثر ما أخافه تماسكها المُرعب الجليل، طأطأ رأسه محاولاً مواساتها ما أمكنه: «ما

شممت إلا روائح عطر بسالتك».
باغتته: أظنك توشك أن تسألني: ماذا تفعلين بهذا الكوخ، على حافة النهر؟. «كم أنت ذكية، كدت والله أسأل».
«جئتني في العتمة، ولم تتبين شيئاً هنا، اكتريته من جارتي صاحبة البيت الملاصق، وهي أرملة شهيد، هربت إلى هنا لأكتب مقابل ملاليم، ولئلا أُنغّص على حارس الكرم مع زوجته، فبيته (الموشوم جسده بنبال الحرب) عبارة عن حجرتين، واحدة للزوجين اللذين أكتم أنفاسهما، والثانية لأطفالي وأطفاله، أواني وفهم جميعهم طقوسي وقدّرها، وتركوني وشأني أتدبر بشرف، إن ظل هناك شيء في الدنيا اسمه الشرف».
«لا أسمع نأمة ولا حركة في بيت الجيران».
«الأطفال نائمون .. والأم ذهبت تتلقط رزقها».
انهار الهمشري تماماً، وارتفع نشيجه، وأخذ يصرخ «كفى، كفى، كفى».
قالت لنفسها: «تعزّ عليّ والله دموع الرجال» فانفجرت هي الأخرى، في بكاء مريح.
قيل: قبل أن يغادر كوخ الخيزران، قال لها سأساعدك على العودة إلى فلسطين، فقالت له: قبلك، رويت حكايتي لـ(999) ابن كلب، كانوا قد أقسموا بشرفهم أنهم سيساعدوني على العودة ... قاطعها: «يعني هكذا أنا أتممت الألف». ضحكا معاً، ضحكة صافية نابعة من نبعة القلب الحزين.
وقيل: إنه لما روى حكايته لرفاق الفندق، قالوا له: قُص منها، أنت تحلم، أنت سكران، هذه حكاية امرأة ليست من لحم ودم.
وقيل: يمامة النهر قالت له: ربما أولئك النسوة – الجثث الباردة الأنيقة كما وصفتهن – ربما ابتاعت إحداهن عدسة عين من رجل يقطن أحد الأزقة ليطعم أطفاله وزوجته، وربما غيرها من بنات الناس (الفوق) ابتاعت كلية .. وربما ..
وقيل: آخر ما لمحه الهمشري في كوخ الخيزران كتاب «فنّ الهوى» لأوفيديوس، وكتاب «معذبو الأرض» لفانون، وكتاب «هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه، ورواية «الأرض الطيبة» لبيرك بك، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة.
وقيل: قالت له يمامة النهر قال فنان الجوع: «كان لا بدّ لي من أن أجوع، فلا يمكنني أن أفعل سوى ذلك» .. تذكر كافكا، دائماً.
وقيل: قالت يمامة النهر: لأني لا أنتمي إلى أية سلالة مضخمة، متغوّلة في الدنيا، سأظل على ما يبدو عالقة هنا.
وقيل: إن رفاق الفندق قالوا: نحن الذين كنا نهذي، والهمشري كان في أبهى أصدق تجلياته.
وقيل: إنّ الهمشري قال لرفاق قلمه: عندما يكون الواقع أغرب من الخيال، ماذا سيتبقى لكم أيها المساكين؟
وقيل: إنّ النغل الجاحد ما فتئ في بيت خالته، وربما أُعدم.
وقيل: إنّ الهمشري لمّا زار ملجأ العامرية صرخ من قحف رأسه: «بغداد، جرحي صرخ قدّام جرحك أخْ».

وقيل: في البداية تسلل إلى نفسه الشك في أن حارس الكرم حتماً يواقعها، لكنه لما خبر معدنها: تفٍّ على نفسه.
وقيل: إنّ يمامة النهر حاصلة على دكتوراة في أدب القصة القصيرة.
وقيل: إنّ أجرة أستاذ الجامعة هي (5000) دينار عراقي، أي ما يساوي ثمن (200) علبة كبريت.
وقيل: إنّ الهمشري أول ما وطأت قدمه أرض السواد، قبّل ترابها وصرخ: أنا في بغداد؟؟! لا أصدق!!!
وقيل: حارس كرمها هو في الحقيقة فلسطيني، وأحد مقاتلي بيروت أيام زمان، وهو اليوم بائع فلافل .. عالق مثلها.
وقيل: اكتشف الهمشري أنّ خال يمامة النهر كان رفيق برش.
وقيل: أولاد الـ(999) حاولوا معها، وصدّتهم، لأنّ ذلك كان ثمن العمل والعودة.
وقيل: إنّ الهمشري أقسم أنه يشفق على أمريكا: هذا بلد مُحاصِرٌ وليس مُحاصَراً.
وقيل: اليمامة قالت له: أهل البصرة أيام القصف حفروا الأرض ليشربوا، واستخرجوا منها وقوداً لطهي الطعام.
وقيل: لما سألها كيف عرفت أنني هو؟ قالت له: في مثل هذا الوقت من الليل، أيبحث عن محزونة إلا محزون مثلها؟ إنها حواس المرأة التي لا تخطئ.
وقيل: الشيء الوحيد الذي لم يقله الهمشري لحبة التمر الكبيرة، لقشدة البن الفائرة، ليمامة النهر التي تربّت في حضن (حضارة تدلل عيني)، لحجر (الطابوق) العبقري: طيلة عمري وأنا أبحث عنك.
وقيل: لا،لا، بل آخر كلماتها كانت: «ماكو شوارب تهتز؟».
وقيل: لمّا صحا الهمشري من نومه في اليوم التالي اعترف لرفاق الفندق قائلاً: لقد كذبت عليكم، يمامة النهر ليست إلا كائناً ورقياً بسيطاً، يمامة النهر امرأة من ورق.

---

* قاصّ فلسطيني يقيم في رام الله.

قصص قصيرة جداً
مغافلات الصياد

علاء الدين كاتبة *

تحدي

الشجر الذي قطعت هامته قبضة «البلدوزر» أمطرته يد السماء سرّها، فغسل حزنه، وأنبتت جذوعه المبتورة غصوناً خضراء يانعة.

صيد

لم يسلم الأموات من رصاص القنّاص المترقب في نقطة المراقبة، حين هرع هِرٌّ وراء صيده فوق سر المقبرة المجاورة.

هلع

ما أزعج هديرَ الدبابة حقاً، هو زقزقة العصافير في أعشاشها هلعاً من ارتجاف سكون الليل.

سيل

لم تشفع حبّات البندورة لصاحبها، حين هوت من فوق ظهر الشاحنة قُبالة الحاجز، وكان قد همّ باللحاق بها، لولا ما أحسّ به الجندي الطيّب من إغراءٍ عارمٍ أمام اندفاع اللون الأحمر، فجعله سيلاً من دماء.

العلم

كاد العلمُ يرفرفَ فرحاً، على مدى أكبر اتساعاً من الوطن، لولا أنّه كان أجردَ ..!

دفء

تسمّر الجنود في خيمتهم من شدّة البرد، ولم تُجدِ النيران معهم، ولا الشراب، أو الأغاني، وحتّى أحاديثهم عن النساء نفعاً، قال أحدهم: ما رأيكم أن نتسلّى؟ .. وقبل أن ينتظر الإجابة، كان قد أطلق قذيفة مجهزة من فوهة بندقيته، صوب أحد نوافذ البيوت القريبة، معلناً بدء المباراة.

أصاب هدفه امرأة نائمة في شهرها التاسع، فبقر بطنها، وظنّت المرأة أن المخاض جاءها. التفت الجندي نحو رفاقه، وقال: الآن، فقط، أشعر بالدفء.

مغافلات

-I-

الولد الشقي غافل أمّه والمدرس، ثم خرج وأقرانه ليلعب.. لكن رصاصةً غادرةً غافلته، فاستشهد.

-II-

الولد الشقي لم يعرف أنّه قد مات! .. واستغرب من جموع الناس التي كانت تحمله في مسيرة، بعضهم كان يبكي حين وضعوه في جوف حفرة.

الولد الشقي عفّر روحه ببرد التراب، ومات على نفسه من الضحك.

-III-

الولد الشقي غافل قبره، وخرج وأقرانه ليلعب .. وتعجّب كيف لم يلحظه الجنود، رغم أنّه كان ينطّ فوق رؤوسهم جميعاً، وفي قلب المستوطنة ذاتها التي غافلت قلبه برصاصة.

-IV-

الولد الشقي أدرك الآن أنّه قادرٌ على أن يغافل أمّه والمدرس، كذلك قبره والجنود.

فيض

كانت الأحلام خضراء يانعة، حين غادرت بعيداً عن موطنها، وهناك قررت أن تواجه شأناً صغيراً كان يعيقها؛ كانت بحاجة إلى عملية منظار بسيطة لعلاج عقم مؤقت. الطبيب طمأنها على نجاحها، فرقدت مستسلمة للفرح، ولم تفارق ابتسامةٌ غامضة محياها. كانت الروح قد غادرت لتزفّ من لوعة الشوق بُشراها، لكنها من شدّة الفيض سالت، ونسيت أن تعود إلى جسدها المُمَدَّد على البياض.

المهرّج

المهرّج الذي أُصيب بورم سرطاني في الدماغ، فَقدَ أطباؤه الأمل في شفائه تماماً، واتفقوا على أنّه سيموت قريباً لا محالة. لكنّ المهرج الذي استمر بالقفش والضحك على خشبة المسرح حتى آخر رمق في حياته، منتظراً ،أيضاً،قدوم هذا الضيف الغامض ليسخر منه، لم تتحقق أمنيته تماماً، وعاش أمداً لم ينتظره متآلفاً مع ورمه، حتى جاءه الخبر اليقين بموت أطبائه كافة بإورامٍ وأمراضٍ شتّى. المهرّج الذي طال أمد انتظاره، مات أخيراً من شدّةِ الضحك.

---

* كاتب وناقد فلسطيني يقيم في غزّة.

اللوحة السوداء

مشهور البطران*

صعدت إلى الطابق الثالث وأنا أتابع اللوائح إلى أن اهتديت إلى مكتب المحامي، فاجأتني السكرتيرة أن المحامي سيتأخر ساعتين، إثر مهمة طارئة، ولما لم يكن أمامي عمل آخر فقد فضلت الانتظار ريثما يعود.
ألقيت نظرة استطلاعية في زوايا حجرة الانتظار، وتفحصت محتوياتها، بدافع الرغبة في طي ساعتين من الانتظار. حجرة واسعة يعكس تصميمها ذوقاً رفيعاً تجلى واضحاً في البلاط الشفاف العاكس، والنوافذ نصف الدائرية، والجدر البيضاء المصقولة، ذات الستائر الحريرية المطرزة برسومات استوحيت من التراث. وعلى أحد الجدران علقت لوحة، بيد أن اللوحة بدت غامضة في مضمونها منفرة في ألوانها. وعجبت كيف لعاقل أن يضع هذه اللوحة على جدار حجرة بهذه الأناقة. وبالرغم من ثقافتي المتواضعة في فنون الرسم فإنني رجحت أن هذه اللوحة هي شيء ما خارج مدارس الفن المعروفة. وعلى الأرجح أن يداً مبتدئة حطّت خطوطها المتشابكة وجبلت ألوانها المتناقضة. ولم أطل النظر إليها متلمساً العزاء في متابعة صورتي التي انعكست أمامي في البلاط الناعم المصقول.
كانت الساعة لم تتجاوز التاسعة، ولم يمض من الوقت إلا قليل، وبدأت أولى علامات السأم تغزوني. قمت من مجلسي، ووقفت وراء النافذة المطلة على المدينة. كانت سحابة من الضباب قد خيمت على المدينة بكاملها، فلم يبدُ منها إلا قمم العمارات الشاهقة. وفي لحظات قصيرة ارتفعت سحابة الضباب في حركة تموجية رشيقة، وغرقت المدينة في بحر من القطن المندوف. تداعت لذاكرتي – دون سبب – قصة ذاك البحار الغريق الذي تحطمت سفينته في عرض البحر، فظل ممسكاً بلوح الخشب انفصل من جسم السفينة، وشعرت بضيق شديد فأخذت أقطع البهو ذهاباً وإياباً، في محاولة لكسر حالة التوتر التي بدأت تنتابني. ويبدو أنّ وقع الأقدام نبه السكرتيرة الحسناء فخرجت إليّ تسألني إن كنت أحتاج شيئاً، فقلت لها شاكراً اهتمامها: فنجان قهوة.
واحتسيت الفنجان، وأنا ما زلت أتردد بين الحائطَيْن، فوقعت عيناي مرة أخرى على اللوحة، ولكن هذه المرة تركت

فيّ انطباعاً أكثر أريحية من ذي قبل، إذ وجدت ناظري قد شدا بخيط خفي إلى منظر جديد. ولولا أنني وحيد في الحجرة لخطر لذهني أن شخصاً ما بدل اللوحة بلوحة جديدة. وتملكتني الدهشة ورحت أغمض عيني لأتأكد أن ما يحدث أمامي ليس وهماً استوحاه الملل وطول الانتظار. ولكن سرعان ما انقشعت الدهشة كسحابة صيف، إذ وجدت أن اللوحة اعتمدت تقنيتي المنظر الثلاثي الأبعاد وزاوية الرؤية. ووجدت نفسي شغوفاً بالمنظر الجديد.

حديقة واسعة مفروشة ببساط من النّجيل الأخضر. كل شيء فيها ملوّن وطري. وفي وسط الحديقة بركة ماء انعكس على صفحتها الزرقاء قرص الشمس الملتهب كأنه قطعة من البرونز. وحول البركة جلست الحسان ينثرن الماء بأقدامهن ويسبحن في سحابة من الرذاذ القطني البديع. وفي أعلى اللوحة، وتحت قبة السماء الصافية، أسراب من الطيور هجعت إلى أعشاشها فوق الأشجار الخضراء الباسقة. في أماكن متفرقة من الحديقة جلس الناس شيوخاً وشباباً وصبايا في ظلال الأشجار الوارفة، وآخرون يقطفون الثمار التي تدلّت كالعناقيد من الأغصان المتهدلة.

إنّه حقاً منظر رائع بديع، ولم يخطر ببالي، قط، أن مثل هذه الجنة يمكن أن توجد على الأرض. ولأول مرة، أشعر أنني أمام رسام عبقري. ومن المدهش حقاً أنك بمزيد من التدقيق في شخوص اللوحة، تجد أن وجوههم تعكس إيحاءات تتناقض مع ما تشير إليه اللوحة من جمال ساخر أخاذ. فالأشخاص في اللوحة بدوا متشردين هاموا على وجوههم ردحاً طويلاً من الزمن، وعلامات معارك دامية ارتسمت واضحة في تقاطيع وجوههم البائسة، وفي عيونهم نظرة قلقة متشككة.

وجدت نفسي مدفوعاً بفضول شديد لمعاودة النظر في المنظر الأول علني أظفر بجواب. انحرفت إلى اليسار قليلاً، وضبطت زاوية الرؤية، فتهادى المنظر الأول كأنه ستارة نافذة مطوية انبسطت ببطء، وبدأت معالمها تتضح شيئاً فشيئاً حتى اكتملت الصورة.

مساحات سوداء قاتمة بلا أي وميض احتلت ثلاثة أرباع الإطار، وفيما عدا ذلك، راح رجلان يتصافحان وهما يقفان وراء طاولة مستديرة تتناثر عليها بعض كراسات وأقلام، وأمام الطاولة المستديرة يقف جمهور عريض يتأهب للتصفيق، أحد الرجلين المتصافحين تلوح في وجهه الأحمر ابتسامة ظَفَر، يلبس بدلة سوداء فوق صدارة بنية وياقة بيضاء، وعلى وجهه مسحة من الترفع تكاد تشبه الاستعلاء. أما الرجل الآخر فهو هزيل شاحب اللون علت به السن حتى كادت تحني ظهره بعد أن أشعلت رأسه شيباً، ويبدو من تقاطيع وجهه أنه عانى كثيراً وقد انعكس ذلك جلياً في نحافة جسمه، ولحيته الكثة، ونظراته المتعبة، وقد غشتها أضواء خاطفة من وراء الجمهور.

وبقدر ما كنت شغوفاً باستشفاف الخيط الذي يربط المنظَرين معاً بقدر ما شعرت بالضياع.. ولعنت في سرّي ما آلت إليه مدارس الفن الحديثة من أساليب تجريدية. ولمعت في ذهني فكرة، فربما توجد في اللوحة مناظر أخرى تساعد في الحل. فأخذت أتحرك يميناً وشمالاً، أعلى وأسفل، وفي كل مرة أضبط زاوية الرؤية، ومع كل حركة كانت المساحة السوداء القاتمة تتحرك مع ناظري بلا أي وميض. واختفى منظر الحديقة بثمارها وحسانها وأشجارها الباسقة، وتحولت اللوحة بكاملها إلى مساحة سوداء قاتمة بلا أي وميض.

---

* قاصّ فلسطيني يقيم في الخليل.